الأنوثـة والرجولـة فـي الحيـاة المكرّسـة مـا بيـن الحـب والكـراهيـة

وفيقه كلّاسي

" في البدء ذكراً وانثى خلقهما "....

من لحظة التقاء النطفة والبويضة، كانت ازدواجيتنا الجنسية البيولوجية تحضر الأرضية لخصائصنا النفسية المزدوجة مستقبلياً.

عند الولادة، ذكراً ام أنثى، يتلقى الرضيع العناية والعطف من الخارج. انه بوضع سلبي، متلقي Passif، منفتح على الأم أو على بديلها طبعاً، التي تنفتح بدورها على الطفل لتلقّي كل جوعه، ألمه، صراخه وضعفه.

هذا السلوك الأنثوي الأولي بالعلاقة مع الرضيع، يدفعنا للقول مع المحلل النفسي الانكليزي المشهور Winnicott : من اللحظة الأولى، الآخر هو أنا، أو L'objet est le sujet.

فيأخذ الطفل كل خصائص الأم، وتأخذ الأم على عاتقها كل معاناته الجسدية والوجودية.

تعطي الحنان والرعاية، وتتلقى الألم وبسمة الاكتفاء.

هذا الطفل الذي يأخذ الأم بكليتها مع الحليب، لا يمتزج فقط مع خصائصها الأنثوية الرقيقة والحنونة، ولكنه يلتقي أيضاً مع صورها الداخلية عن الرجل، اذا كان هذا الرجل أباً أو زوجاً.

فالأم تحمل بداخلها صورة امّها وأبيها أيضاً، كما يحمل الأب – الرجل الصورتين معاً.

ويمكننا أن نعود بالسلسلة إلى ما لا نهاية الصور والعلاقات الوراثية الأنسانية حيث صورة الأب داخل الأم تحمل أيضاً في طيّاتها ازدواجية صورة أبيه وأمه ...

وهكذا دواليك نعود بالتاريخ إلى آدم وحواء وكيف كانت المرأة، منذ البداية من ضلع الرجل وقلبه.

مما حدا كارل يونغ، تلميذ فرويد، ليتكلم عن ال Anima وال Animus، أي النزعات الأنثوية والرجولية داخل كل شخص منّا.

هذه الأزدواجية البيولوجية والنفسية الأولية للكائن البشري، هي المسؤولة بإعتقادنا عن تكوّن علاقاته السوّية أو المرضية مع ذاته أولاً ومن ثم مع محيطه المستقبلي.

حينها تبدأ مسيرتنا مع الأب والأم في داخلنا لنتساءل:

هل هما في خصام أم وفاق؟ هل الأنوثة والرجولة في جوهر كياننا يمثلان ثنائياً متحداً أم متنافراً؟

متناغماً أم منفصِماً؟

كل المشكلة تكمن هنا. فكلما كان الثنائي الداخلي متراصّاً، كلما قبلنا أكثر ازدواجيتنا الجنسية والنفسية. وكلما كانت علاقتنا مع الجنس الآخر متوازنة وخلاّقة. فالسلام والمحبة الداخلية تظهر للخارج تصالحاً مع المحيط والله.

فيمكننا عندها أن نتأرجح بسهولة ما بين الصلابة والطراوة، ما بين الأنوثة والرجولة بعلاقاتنا وبتأقلمنا مع الخارج. فيصبح هذا المد والجزر الداخلي طبيعياً كتعاقب الليل والنهار. وعندها، لا نخاف ان يظهر الطفل بداخلنا، فنسمح له أن يلعب حيث يشاء ويفكر كالراشدين حين يلزم.

أما إذا كانت صورة الأنثى والذكر داخلنا مشوشة أم منفصمة، فهذا يمكن أن يؤدي إلى عدم قبول لرجولتنا أم انوثتنا داخلياً وبعلاقاتنا أيضاً مع الآخر.

فإذا أراد مثلاً الرجل أن يفهم المرأة، عليه أن يفهم ذاته أولاً. وإلاّ فتصبح المرأة كما شبهها فرويد "بالمحيط الأسود"، يعني الغامض، اللغز، التي تحمل في جوفها أسراراً خطرة لدرجة أن تصبح ملتهمة الرجال!

وهنا نعود لصورة المرأة – الأم الأولية في مخيّلة كل طفل، ألا وهي صورة الأم والأب متحدين معاً.

وهذا ما نجده عيادياً بُهيامات الأولاد والراشدين، أي نصف مرأة انثوي والنصف الآخر بأعضاء ذكرية. وممكن أيضاً أن نجدها مع قرنين وذنب حيواني (كما تظهر في الأساطير)، حتى لنخالها شيطاناً متجسداً، نُسقط عليه حيّة الفردوس، فتكتمل لوحة الأضطهاد، وتصبح المرأة هي المسؤولة عن خروج الرجل من الفردوس وعدم تحقيق قداسته أو اتحاده مع الله. فتغدو عندها صورة المرأة كساحرة شريرة، أما الرجل فيغدو بنظر المرأة ذئباً مُفترساً.

أمّا إذا أردنا أن نتكلم عن خصائص هذه الأزدواجية، فيمكننا أن نعطي الأنوثة صفة الرقة، الحب، الحنان، القبول والتلقي Passivité.

أمّا الرجولة فيمكننا أن نصفها أكثر بالقساوة، الفعّالية، الأقدام، العقلانية والعدوانية Activité.

ولكي نبسط الصورة أكثر، يمكننا أن نضع الرجل في موقع العقل والمرأة في موضع القلب.

أما النزعات الجنسية فيمكنها أن توظَّف لخدمة الأثنين معاً.

إذاً، وكأن الانسان مقسوم إلى ثلاث نزعات: العقل – الرجل ،القلب – المرأة، والجنس الذي يحمل هاتين الخاصتين.

كيف يمكننا الآن، أن نطبق هذه المقدمة النظرية على الحياة المكرسة، وخصوصاً على نتائج الأحصاءات، نظرة العلمانيين والشهادة الحية من قلب الحياة الرهبانية؟

سأحاول أن أرسم صورة المعاناة الداخلية للمكرّسين على ضوء هذه الأزدواجية البيو–نفسية، مشاكلها وحلولها، بواسطة تقارب افتراضي:

لنُسلم مثلاً ان نذر الطاعة هو تعبير عن النزعة الأنثوية في داخلنا، بكل ما تملك من خصائص القبول والتلقي والطراوة.اذ علينا التنعّم بكثير من المحبة للتأقلم مع هذا النذر .

فالطاعة تُلزم الطواعية التي هي بحاجة للطراوة لكي تلتوي. وهو معلومٌ أن الطراوة والرقة هما صفتان انثويتان تروم اليهما الحياة الرهبانية – بالمبدأ طبعاً – لتطوير القلب، الخدمة والرسالة.

الهدف الثاني للحياة الروحية هو ترويض العقل. وبما أن العقل يحاسب على كل شاردة وواردة، عليه أن يخضع لنذر الفقر، الذي يهدف إلى التخلي عن المنطق الرجولي القاسي، الفعّال، الذي يتعارض طبعاً مع الاستسلام الروحي، الهدف الأسمى للحياة المكرّسة.

بعد نذر العقل والقلب، يأتي نذر العفّة ليتوج الاثنين بالتخلي عن النزاعات الجنسية التي يمكن أن تخدم العقل تارة أو القلب تارة أخرى.

من المؤكد أن الحياة المكرسة تهدف من خلال هذه النذورات إلى الوحدة الداخلية النفسية لكي نستطيع بعدها ان نتكلم عن وحدة مع الله، إذا لم تكن بالتوازي.

اذاً وبحسب نتائج الاحصاءات عن آراء العلمانين بالمكرّسين وبحسب الشهادة الحية والجريئة التي سمعناها في المقدمة، يمكننا أن نستخلص عدة مشاكل وعوائق في الحياة المكرسة نستعرضها كالآتي:

تبدأ المشكلة ما قبل التكرّس، ويستكمل الشرخ من بعدها: لنفترض ان شاباً عايش شرخا علائقياً بين والديه فترسخت صورة الانفصال ما بين القلب والعقل في داخله، ما بين الذكر والأنثى، الحب والكراهية.

وممكن أن تكون اهتزّت صورة المرأة في حياته بسبب مواقف أبيه من أمّه. ولكن بقي قلبه يعمل من جهة وعقله من جهة أخرى:

أمه وأبوه منفصلان داخله، يحب الأولى ويحترم الثاني. مع تبسيط الحالة، نكمل مع هذا الشاب الذي يدخل الحياة المكرّسة حيث يواجه الموانع السالفة، أي النذورات، ومنها إغفال أو حتى قمع العاطفة والجنس وتشجيعه للسير بحياة أكثر عقلانية، وتحويل الحب فقط نحو الله.

ويكبر عندها الشرخ بين العقل والقلب والجنس، يفشل التسامي نحو الله، لأن الوحدة الداخلية والتناغم ما بين أجزاء شخصيته لا تمكنه من تسامي إلا جزئيات متفرقة من داخله، تطبع حياته بأحساس الزيف والانفصام ما بين العيش ظاهرياً بالأقوال الروحية وباطنياً بالأحباط والقلق.

فنتوقع عندها عدة امكانيات للتصرّف:

ممكن أن يأخذ العقل الدفة ويقوى على الناحية الأنثوية – العاطفية، وعندها يصبح الشخص قاسياً، متعجرفاً، متسلطاً. فتهتز صورة المرأة عنده، لتصبح موازية للخوف، الاشمئزاز والكراهية. ويكبر هنا خطر المثلية.

فعندما نقمع القلب داخلنا، ترجّح كفة العقل أو الجنس، نمارسهما دون حب أو محبة. فيختل التوازن الداخلي والعلاقي معاً ولا يعود يعلم الشخص من أين المشكلة وكيف الحل.

فالمشكلة تكمن في فصل الحب عن الجنس، والمحبة عن العقل. أما المصالحة مع العامل العاطفي داخلنا، انوثتنا، قلبنا، رقتنا، ومدّ الجسور بينها وبين العقل الرجولي والجنس فهي الطريق الأسلم لمعالجة الشرخ الداخلي والعلائقي ومن ثم الروحي.

فالقلب وحده يجمع، كما تجمع الأم العائلة، وهو الذي يوازن ما بين العقل والاحتياجات الجنسية، ما بين قسوتنا على الآخرين ومحبتنا لهم كأنفسنا.

كيف يمكن لمكرّسة مثلاً بعلاقة سيئة مع أمها التي في داخلها أن تكون أماً محبة لا تشوبها قساوة أو كراهية؟ فالمرأة المكرّسة التي تماهت مع صورة الأب وقوته، ورفضت صورة الأم وضعفها بل وكرهتها، لا يمكن أن تتعامل مع اخوتها إلا بمنطق الرجولة، القوة والتسلط، وهذا ما يمكن أن يظهر بتعاطيها مع المجتمع بقلب رسالتها وشهادتها.فتتباهى عندها المكرّسة

بقوتها ورجولتها بمقابل الرجل الذي يجد عيباً باظهار جزئه الأنثوي ورقته لأنه يوازيه بالضعف والتبعية.

وهناك حل آخر وهو قمع القسوة نحو الآخرين وتوجيهها نحو الذات وهنا نقع بالتصرف المازوشي الاجتماعي والديني.

فالحل لا يكون ان نلغي أجزاءً منّا أو ان نكبتها، ولكن ان نفعلها، نعيشها، لنسقط الخوف منها، من انفعالاتنا وأجزائنا المحطمة.

الحل لا يكون بأن نسدل ستار التديّن على هذه الأجزاء المحطمة داخلنا، ولكن بأن نواجهها، نتصالح معها، ومن بعدها نسعى لأن نحولها إلى حب متسامي نحو الله.

فإذا لم نحب أنفسنا، كيف السبيل أن نحب الآخر؟

إذا بقيت الكراهية في نفس الشاب نحو المرأة – الأم، كيف يستطيع بحياته المكرّسة ان يتعاطف مع نساء رعيته؟

وإذا بقي المكرّس ينظر بدونية للمرأة أو لصورة الزانية بداخلها، فهو يُسقط عليها كل احساسه بالدونية تجاه المرأة التي تستطيع أن تنجب وهو لا.

وإذا بقيت الكراهية نحو الرجل متغلغلة في نفس المكرّسة، كيف باستطاعتها ان تحب القريب، نفسها، وأباها؟

الحل يكمن في تقبلّ انوثتنا ورجولتنا. لكي نقبل من بعدها امومتنا وابوتنا. فكيف السبيل ان نتصرف بشكل امومي اذا لم نتصالح أولاً مع الأنثى في داخلنا؟

وكيف يمكننا أن نعامل الآخرين بأبوّة وعطف إذا لم نقبل الرجل في داخلنا؟

وكيف تستطيع المرأة المكرَّسة ان تتصالح مع عذريتها الأمومية، إذا لم تتخطى صورة حواء الرافضة والمشاغبة (أي الرجولية) إلى صورة العذراء المتلقية بحبٍ لكلمة، ملؤها الانوثة والامومة؟

إذاً، مدّ الجسور بداخلنا ما بين الأنوثة والرجولة هو الطريق الأسلم في الحياة المكرسة للعبور من الكراهية إلى الحب، من القساوة إلى المحبة، من التسلط إلى الطواعية. وعندها فقط، نعكس للعلمانيين صورة موحدة مع ذواتنا، مع الآخر ومع الله.

عندها تتغير نتائج احصاءتنا، تتغير معاناتنا داخل الأديرة، نعيش دون اقنعة زيف لأننا لا نعود نحتاجها.

تمتلأ أديرتنا بالدعوات لأن الناس تلتقي بذواتنا الحقيقية دون انفصام، فنسير عندها بخطى ثابتة نحو القداسة.

انه لتمني، لا بل رجاءً، بقيامة الشاهد الذي يشهد لنفسه، بمشاهدة الله في داخله.